

الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَاونَد



الإِنسانُ العَرَبِيُّ الجَدِيدُ



الكفاح من أجل المعرفة.. ومعرفة من أجل النصر

للكلمة الحلوة سحرها. وللصورة الفنية الأنيقة فاعليتها العميقة.. ولكن الكلمة على حلاوتها والصورة على ما فيها من أناقة مختارة لا تكفيان وحدهما لإنجاح فريقنا الذي يواجه أوقح خطة من خطط العدوان والجريمة. إن إسرائيل التي عانت وتعيث في أرضنا فساداً.. والتي بطرت معيشتها وانتفخت بغرورها فخيل لها شيئاً ما، ليس بالشيء حين جعل الأجنبي المعتدي من سلاحه وامكاناته المادية والسياسية معيناً لها لا ينضب، تغترف منه متى رأت في ذلك حاجة وكلما حلا لها أن تفعل ذلك. إن إسرائيل هذه لم تتسلح بالكلمة والصور الفنية لتحقيق أغراضها العدوانية بل جعلت من التكنولوجيا والمنجزات العلمية في أحدث صرخاتها وسيلة للقتل والتشريد والإعدام بالجملة، وإثارة الفتن وتهجير مئات الألوف من الأبرياء وطردهم من ديارهم. هذا السلاح الرهيب لا يقاوم إلا بمثله.. وآثاره التخريبية لا تقف عند حد معين ما لم تواجهها فعالية السلاح الذي تصنعه تكنولوجيا مماثلة ومهارات صناعية ذات دربة عالية..

لكن التكنولوجيا نفسها وما يرافقها من المهارات والدربة العالية مشروطة كلها بالأساليب العلوية التي تعتمد الوقائع وتؤمن بالأرقام وتستعين بالإمكانات المادية.

وفي بلادنا بحق الله إمكانات مادية أكثر كثيراً مما يتصور بعضنا وفي بلادنا من أشياء الأرقام ما يكفي لتحقيق كل أحلامنا. ولكن هذا كله لا يكفي لتزويد أحلامنا بما تحتاج إليه من الحرارة والإيجاب. إن الإنسان العربي القادر على منح هذه الأحلام الحركة وتحويلها من حيز الخيال إلى حيز الواقع هو رأسماننا الكبير الذي يجب أن تسعى إلى تحقيقه.

الإِنسانُ الذي يؤمن بالعلم خطة وحيدة للكشف عن قوانين الطبيعة ومصادر القوة.

والإنسان الذي يجعل من العلم وسيلة المثل لتكريم الثروات القومية وتنظيمها وتعبئتها.

والإنسان الذي يتصرف ويفكر على الطريقة التي أوصى بها الإمام علي كرم الله وجهه حين قال: إعمل لدنياك

كأنك تعيش أبداً. واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً..

هذا الإنسان الذي تستغرقه هموم العلم حتى لا يكاد يرى ويفكر ويحس إلا من خلال إبعاد العلم الحديث والتكنولوجيا المعاصرة في أعلى أشكالها هو الذي تشعر معه بالأمن بعد الذي جاءنا من الأخطاء عن اليمين وعن الشمال ومن كل أقطار حياتنا الوطنية.

إنه إنسان المعاناة التي عجزتها صوفية أخلاقية معينة تعطي المعاناة محتواها الروحي وفعاليتها المبدعة وسلطانها الذي تتضاءل أمامه الفدية وتذوب الأبعاد المادية الضيقة مهما تكن العناصر الدافعة إليها والحافزة على استمرارها.

نحن ننتظر وقد عانينا مأساة الجهل المرتجل منذ واجهنا تحديات الاستعمار الأجنبي والعدوان الصهيوني الغاشم ، نحن ننتظر أن ينضوي كل فتى من فتياننا وفتاة من بناتنا في مسيرة الكادحين العاملين للحصول على المزيد من المعاناة والمزيد من مكاسب التكنولوجيا الحديثة..

العلم بعد الكوارث التي قرعت أبوابنا وحطت رحالها خلال ديارنا وزرعت البؤس والأسى شتلات ذات رؤوس كرؤوس الشياطين فوق كل شبر من ترابنا الوطني ، هذا العلم ، لم يعد ترفاً من الترف.. ولا عنواناً في شهادة من الشهادات الجامعية ، ولا أسلوباً من أساليب الاستعلاء ولا خطة من خطط التنافس على أشياء الدنيا الصغيرة بل هو حاجة صوفية تعيش في أعماق وجداننا وتنمو في جو من التقوى والورع وروح الفداء والتصميم على العمل والعمل حتى الاستشهاد وفوق المغزل وعند آبار البترول وأمام آلات المصانع ومن وراء أجهزة المخابر فوق الأرض وفي أجواز الفضاء وتحت مياه البحر. إنها الحاجة التي تدفع صاحبها في غير قصد وفي إلحاح عنيف شديد إلى البحث عن أسرار السماوات والأرض سعياً إلى توضيح الرؤية واستغلال الطاقات التي وضعتها العناية الإلهية في خدمة الإنسان.

بل هي هذه الحاجة التي امتلأت بها لوائح الأبطال بجريدة من الأسماء لا تكاد تقف عند صفحة من صفحات كتاب تاريخنا المجيد. فهي تمتد وتمتد سطرًا وراء سطر وصفحة وراء صفحة بل ملزمة وراء ملزمة ثم تقف بعد ذلك من كتاب حافل إلى كتاب مثله ملء بسجلات الفخار والنصر.

حقيقة أولية يجب أن يدركها الإنسان العربي الجديد الذي نحلم بتحقيقه في معركة البقاء من أجل المعاناة وفي معركة المعاناة من أجل البقاء ، هي أن المدرسة يجب ألا تكون بعد يومنا هذا مصنع شهادات ولا مشغل ألقاب بل ينبوعاً من الخيرات العقلية والرياضيات الروحية والأطماع الإنسانية الكبيرة توضع في خدمتها عزمات الفتيان والفتيات وتسكب على جذورها خلاصات جهود سخية تتجمع قطرة وراء قطرة من وراء سهر الليالي والعمل الموصولة به نهاراتنا كلها من غير كلل أو ملل لنذكر أن هذا الإنسان العربي هو نفسه الذي أشار إليه معلناً الأولى وحامل رسالة دين الله إلينا حينما قال: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

فالعلم هنا ليس ذاك الذي يقصره بعض الفقهاء على فنون معينة من الفقه والحديث النبوي الشريف بل هو الذي ينتشر فوق كل ميدان ويتناول كل جانب من جوانب الطبيعة والحيوان والإنسان أنه العلم الذي يضيء بنوره كل زاوية من الزوايا.. بطاقاته كل خلية من خلايا روحنا.. ويحفز على البطولات كل إرادة من إرادات شبابنا الطموح..

أيها المستمعون الكرام.....

إنساننا العربي الجديد هذا هو الذي يطلب إلى كل منكم أن يعده في حدود إمكاناته وأن يسعى إلى تمكينه من التكاثر بكل طريقة وبأي ثمن وعند كل مناسبة من المناسبات. بالحماسة التي لا تفتقر.. والتضحية التي لا تمل.. والكلمة الطيبة الحافلة بالخير.. والأسوة الحسنة.. بالعيون التي ترافق الشتلات الصغيرة وهي تنهل المعرفة في المدرسة وتتبع مصادرها في الكتب. في الليل وفي أطراف النهار.. بالدعاء الصالح على السنة الآباء والأمهات وبالتشجيع الكريم عند الأخوة والأخوات وبالتضحية والبذل عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، بحيث يشعر الفتيان من أبنائنا وبناتنا أنهم يقومون بعمل مقدس ويرصفون طريق الحرية في كل ليلة من لياليهم الجاهدة بحجر من الأحجار.

بهذا الإنسان العربي الجديد نصنع مستقبلنا ونخرج من مأزقنا التي وضعنا فيها كوارث الأمس وننقر على البلادة والاستهتار والتوقيحية في أخلاقنا الشخصية أو العامة.

وبهذا الإنسان العربي الجديد تتم نعمة الله علينا ونبلغ الرسالة التي حملناها من لدنه خالصة من كل شائبة حافلة بالآمال العريضة غنية باحتمالات النصر الحاسم..

شيء آخر يجب أن نؤمن به هو أن الوقت لم يضع أبداً أن بين أيدينا ثروة لا تكاد تنتهي من الليالي والنهارات.. المستقبل كله بكل ما فيه من استعمالات الكفاح والجداد الخصب يطرح نفسه للعمل من أجل النصر..

وإذا كنا قد جعلنا من شروط البناء الذي تتحقق به شخصية الإنسان العربي الجديد في حلقات سابقة عمليات جهاد النفس ونقد الذات وغيرها فإن عملية التنوير العلمي بكل ما تعنيه من الجد في طلب المعرفة والحصول على منجزات التكنولوجيا المعاصرة واستيعاب المنهجية العلمية هي من بين هذه الشروط المقدمة والطلعية.

المهم هو الإيمان بهذه الحقيقة والاندفاع بحماسة وجد في الطابق الذي يمتد طويلاً أمامنا ليضع في متناول أيدينا النتائج الخصبة لملحمة الكفاح من أجل المعرفة.. والمعرفة من أجل انتصار إنساننا العربي الجديد..

وستبين في حلقة قادمة إن شاء الله وبها جديداً من وجوه التعبئة القومية لإنساننا هذا الذي نضع تحت تصرفه كل ما تملكه من الفكر والعاطفة والرجاء..

